

بَيِّنَاتُ الْإِسْلَامِ

- مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ
- عَلَيْهِ فِتْنَةٌ مِّنْ قِصَّةٍ نَّحْبُهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظَرُ
- وَمَا يَدُلُّوهُ لِأَنَّهُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ

(٨)

الحياة في يثرب لا يزال يكتنفها اللغظ ، مذ تسامع الناس فيها نبأ أولئك الأنصار الذين توجهوا إلى مكة منذ قليل في غفلة منهم ، ليبايعوا رسول الله ﷺ ببيعة العقبة ، حيث أعلنوا له السمع والطاعة ، وحيث عاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم ، ويحاربوا في سبيله الأبيض والأسود والآخر من الناس .. وصارت دار أسعد بن زرارة في يثرب مثار الغضب ، حيثما مر بها الناس أفراداً وجماعات ، فهو السيد الجليل الذي أعلن إسلامه لله ، وإيمانه برسوله ، وغدا ذاتئداً عن ضعفاء المسلمين من أهل العقبة بما يتمتع به من جاه في قومه ، وسلطان في عشيرته . . . حتى صارت هذه الدار تعج بالمسلمين من أهل يثرب في الصباح وفي المساء ، دون ماخوف من فتنة ، أو خشية من بطش أو عذاب .

وطرق مصعب بن عمير رسول الله ﷺ باب يثرب .. واستقر في دار أسعد بن زرارة يعلم المسلمين أمر دينهم ، ويحيطهم بأركان الإسلام وتعاليم رسالته ، ويبث فيهم من فيض روحه وأخلاقه . . . حتى ذكت فيهم نار العمل لإعلاء لوائه ونشر مقوماته .

وخرج به أسعد يوم ما يريد ديار أخواله بني عبد الأشهل وديار بني ظفر ، ذينك الحين الخطيرين من أحياء العرب ، طمعاً في هدايتهم وإنابتهم ، فهو يعلم أن ضوء الإسلام لو سرى بين جوانحهم لآمن

من ورائهم أهل يشرب من العرب جميعاً ..

وبينما هما يجلسان في حائط وحوطها نفر من أسلم ، إذ سمع بأمرهم سيدا عبد الأشهل ، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فأخذ منهما الغضب كل مأخذ ، واستبد بهما الضيق أيما استبداد ، ولم يملك سعد بن معاذ إلا أن قال لأسيد :

— لا أباك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا إلى دارنا ليسفها ضعفانا ، فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة من حيث قد علمت ، كفيتك ذلك .. فهو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدما .

واستل أسيد خربته ، وأقبل عليها مغضبا ، يملأ البغض كل وجهه ، فما رآه أسعد مقبلا على حاله ، حتى همس في أذن ابن عمير يقول :

— هذا سيد قومه ، قد جاءك فأصدق الله فيه !!

فقال مصعب :

— إن يجلس أكله !

وصاح أسيد فيها شاتما ، يقذف لسانه اللعنة قذفا ، حتى كاد البعض أن يفر خوفا .. بينما جلس مصعب وأسعد كالجبالين الراسيين لا يعبران التفتاتا ، ومن ثم أخذته رعدة غضب أخرى ، فلم يملك أن قال :

— ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفانا .. هيا فاعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ..

فأجابه مصعب بصوت وقور ، فقال :
— أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته
كف عنك ما تكره . ! ؟

وأخذت أسيد بن حضير بلاغة الحجة ، فقال لمصعب :
— أنصفت . .

ثم جلس وركز حربه ، وأصاخ ياذنه إلى ما يقول مصعب . .
وتفجرت من قلب ابن عمير ينابيع الحكمة ، فقرأ عليه القرآن
غضا طريا ، وقدم له الإسلام خالصا نقيا ، يضيء من جوانبه نور
الهداية والسلام ، وتشع من نواحيه أضواء الحق ، لتبدد من القلب
المشحون بالبغضاء لرسالة التوحيد ، كثيراً مما يغشاه من
جاهلية وظلام . .

واستمر ابن عمير في حديثه وأسيد صامت مسبل العينين ،
لا يدرى أهو في الأرض بين الناس ؟ أم في السماء بين الملائكة . .
وكان ابن عمير قد أدرك ما اكتنف جوانب الرجل من النور ،
فتوقف عن الكلام لينظر بماذا يجيب !!

وتفتحت أسارير أسيد بن حضير ، وأشرق وجهه بالرضى فقال :
— ما أحسن هذا الكلام وأجمله !! كيف تصنعون إذا أردتم أن
تدخلوا في هذا الدين ؟ !

وأجاب ابن عمير فقال :

— تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله .. وتصلى ..

وقام أسيد من فوره فاغتسل وطهر ثوبيه ، ثم عاد ليشهد أمام ابن عمير وابن زراره شهادة الحق .. وصلى ركعتين ١١ ثم أقبل بوجهه كله عليهما ، وأمسك بفخذيها وقال :

— إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن .. سعد بن معاذ ..

ثم أخذ حربته وانصرف .

وبينما سعد جالس وسط حلقة كبيرة من قومه في ناديتهم ينتظرون .. وقد طالت بهم الساعات يتحدثون من خلالها عن أمر المسلمين ، وما ينبغي أن يقابلوا به من الشدة والتسكيل ، إذ أقبل عليهم أسيد بن حضير ، فما نظر إليه سعد من بعيد حتى قال :

— أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به

من عندكم . ١١

وما أن استقر به المجلس وسطهم ، حتى سأله ابن معاذ فقال :

— ما فعلت مع الرجلين ؟

فأجابه أسيد وقد تجمعت في وجهه علامات الحزم ، فقال :

— كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً !! وقد نهيتهما فقالا :

نفعل ما أحببت ، !

وفغر ابن معاذ فاه ، بينما أخذ الجلوس يلبغطون .. خفاف ابنه

حينئذ أن يصيب الرجلين من غضبهم مكروه ، فدير في ذهنه حيلة يدفع بها سعدا كي يجتمع بهما . . فلجأ إلى داعي العصية ليحرك به ذات نفسه ، فزعم له أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، لأنهم يعرفون أن ابن زرارة هو ابن خالة سعد بن معاذ . . ثم أردف يقول :

— إنما أراد بنو حارثة ذلك ليحرقوك !!

وقام سعد كالليث الهائج ، ليدرك ابن خالته حتى لا يصيب القبيلة بقتله عار . . فأخذ حربته وصار يجرى ، ومن خلفه كل من كان في حضرته من بنى عبد الأشهل . . فأن وصل إلى المكان حتى أدرك مرمى إليه أسيد ، فقال منه الغيظ ، واشتد به الضيق ، فضرب الأرض بحربته فاندفن سنانها ، ونظر إلى أسعد بن زرارة في حق ، وقال :

— يا أبا أمامة ، لو لا ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا منى . . أتغشانا في ديارنا بما نسكرة ؟!

ولم يتفوه أسعد بكلمة ، بينما مال إلى ابن عمير وقال :

— أي مصعب !! جامك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان . .

ورفع مصعب جبينه ، وركن بصره في وجه ابن معاذ ، وبسط له يده يدعوهُ إلى الجلوس . . ولكن سعدا كان ما يزال عابس الوجه مقطب الأسارير ، ومن ثم قام إليه مصعب وربت على كتفيه ، ومسح بيطن يده ظاهر صدره ، ودعاه بخير . . ثم قاده إلى حيث

كان يجلس ، فما استطاع ابن معاذ إلا أن ينقاد ١١

وانطلق لسان ابن عمير ببلاغة الحجة مرة أخرى ، ليسمعها ابن معاذ ، وليسمعها معه من تبعه من رجاله .. كلبة سواء ومحجة يضئ ، لا لبس فيها ولا التواء ..

وكانت يد القدر من خلال الحديث الكريم ، تمس قلب سعد بظاهر نورها وباطن رحمتها .. فأن انتهى مصعب من كلامه ، حتى زال عن سعد كل ما كان يحيط بنفسه من عوامل البغض والكراهية ، وامتلأ قلبه حباً لله وإخلاصاً لرسوله ، وفناء في دعوة الإسلام .. فانتفض قائماً يشرق وجهه بالنور ، ثم التفت إلى من خلفه من قومه ، وأشار إليهم أن يتبعوه إلى داره .. ثم بعث منهم منادياً ليجمع له بني عبد الأشهل جميعاً .. ١١

ووقف سيد بني عبد الأشهل بينهم خطيباً فقال :
— يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟
فأجابوه قائلين :

— سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيية ..

فأردف كلامه قائلاً :

— كلام رجالكم ونساءكم على حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ..

فما أسمى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً

ومسلية ..

(٢)

وتناقلت الركبان نبأ إسلام سعد بن معاذ في يثرب ، فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون . . وسرى الأمل في أوصال تلك الحفنة المعذبة من أهل الإيمان في مكة . . فقد رأوا في إسلام سعد أعظم نصر صادف دعوة الإسلام إثر بيعة أهل العقبة .. ورأوا من خلف سعد قوة الحق تتمثل في إسلام آل بيته من بنى عبد الأشهل ، وهم العصابة التي لا يستطيع معارض أن يقوم في وجهها ، كائنا من كان قوة ومنعة ..

وانتقل لواء الدعوة في يثرب من بيت سعد بن زرارة إلى بيت سعد ابن معاذ . . ودخل مصعب بن عمير رسول رسول الله ﷺ ليتربع على عرش الدعوة في بيت سيد بنى عبد الأشهل ، وليبدأ رسالة الإسلام في محو آثار الشرك ، بتحطيم الأصنام في أعظم معاقها بالأمس . . في بيت سيد بنى عبد الأشهل نفسه !!

وتوالى الأيام لتنبؤ رسالة السماء عرشها الأمين في دارها الجديدة . . لتصبح بعد قليل دار الهجرة لرسول الإسلام والمؤمنين برسالة من أهل مكة . .

وانتقل نور الوجود إلى يثرب ، فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب . . ودوت في الجنبات أصوات الحق ، تردد أصداء الإيمان في القلوب :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر عاينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير ساع

وتجلت في آفاق الكون أعظم آيات الإيثار بين المهاجرين
والأنصار، وانطبع في سفر الوجود أصدق صفحات الوفاء بين أهل
الإسلام . . فلقد آخى الرسول بين أصحابه الذين هاجروا معه ، وبين
أنصاره من أهل المدينة . . فنزل كل مهاجر على أخيه الأنصارى
في أكرم منزل . . واقتسموا أموالهم ومتاعهم عن طيب نفس
وأصدق وجدان . . وشر سيد الأنصار سعد بن معاذ ماله شطرين ،
ونزل عن أحدهما لأخيه المهاجر سعد بن أبي وقاص . .

ودارت عجلة الزمان في سرعة ، لتدعم الإسلام صرح القوة في
عاصمته الجديدة ، فما استدار العام حتى تلظت قلوب المسلمين بشوق
الجهاد لبعث العزة التي كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين . .

ونزل قول الله تعالى على رسوله ، مؤذنا بالقتال ، دفاعا عن الحق
وردا للعدوان . . وتلاه الرسول الأعظم بين أصحابه عزيزا كريما :
« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع
الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا ، وإينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوى
عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور . .

...

وخرج المسلمون خلف رسول الله إلى بدر ، ليحاصروا غير الأبي
سفيان في طريقها إلى مكة ، يستردون بها بعض حقهم ، ويتخلصون
بها القوة على عدو الله وعدوهم ، ويبدأون بمصادرتها عهد المقاومة
لأهل الشرك والكفران ..

وما أن وصلوا في قلتهم ، حتى علموا بخروج مكة عن آخرها
في جيش لا قبل للجزيرة بمثله قط ، قد تقدمه سادة قريش لم يتخلف
منهم أحد !!

وكانت حقيقة مفزعة ، استقبلتها الحفنة المؤمنة العزلاء ، بقلوب
ملؤها الصدق والثبات والفداء .. وأشفق الرسول الأعظم على مصير
الإسلام بسحق عصبة الإيمان .. واستشعر حاجته أن يستوثق من
أصحابه في المحنة الكبرى ، وأن يرى رأى الانصار أنفسهم في الموطن
الخطر خارج ديارهم ، فهو يعلم أن الانصار قد عاهدوه على الدفاع
عنه داخل حدودهم ، وليس خارج تلك الحدود !!

وتدفق سيل الإيمان من قلوب المهاجرين ، يهدير بصلافة الحق وقوة
البأس .. ونطق لسان قائلهم يقول :

— يا رسول الله ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى ،
اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .. ولكن اذهب أنت
وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون !!

ونظر الرسول إلى جهة الأنصار وقال .

- أشيرا على أيها الناس . .

فانطلق لسان سعد بن معاذ سيد الأنصار ، يعلن كلمة الوفاء في
ساحة الفداء . . فقال :

- والله لكأنك تريدنا يا رسول الله !؟ لقد آمننا بك وصدقناك ،
وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا
ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن
معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته
لخضناه معك ، ما تخاف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا
عدونا غدا ، إننا نصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا
ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ! !

وأشرق وجه رسول الله بالنور ، وامتألأ بحياه بالبشر والسرور ،
وهو يتقسم بالرضى والأمل ، ليقول :

- سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين . . والله
لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم ! !

وتقدم الرسول الأعظم وأصحابه من خلفه ، حتى نزلوا ماء بدر . .
وهنا تقدم إليه سيد الأنصار وقال :

- يا بني الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ، ونعد ركائبك ، ثم
نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ،
وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فليحقت بمن ورامنا من

قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يابى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ،
ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ، يناصحونك
ويجاهدون معك ..

وربت رسول الله على كتف سعد ، وأخذ يدعو له بالخير .. ثم
قبل منه رجاءه في بناء العريش ..

والتحمت الفئتان المتباينتان ، وأطل نصر الله من السماء استجابة
لدعاء رسوله الكريم ، وبدأ المسلمون يطيحون بهامات الشرك ،
ومن حولهم ملائكة الله يضربون من أعدائه أعناقهم وكل بنان ..
كل ذلك وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشحا سيفه ، يخشى
على الرسول كرة العدو .. !!

وضاقت بحجافل الكفر أرض الصحراء بما رحبت ، وبدأ أنصار
الله يأسرون أئمة الكفر وأشياعهم .. وهنا رأى الرسول على وجه
سعد صفرة الغضب لما يفعل المسلمون ، فقال :

- والله لكأنك تكره ما يصنع القوم !؟

وخرجت من صدر سعد زفرة .. فقال :

- يا رسول الله .. كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ،
فكان الإثخان في القتل في أهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال ..

وانتهت وقعة بدر بأحسن نصر في تاريخ الإسلام ، وعاد
الرسول وأصحابه إلى عاصمتهم قريرى العين .. ليستدير بهم العام

ليذاانا بالخروج إلى أحد للقاء أعدائهم مرة أخرى ..

وكانت محنة كبرى ، اضطرب من خلالها ميزان النصر في ركب المؤمنين لمعصية الرماة من أعلا الجبل أمر رسول الله ، فاحتاطت قوى الشرك بالمسلمين تحصدهم حصدا .. وفر من فر .. وبقي رسول الله مع حفنة ضئيلة بإيعته في ساعة العسرة على الموت دونه .. وكان سعد بن معاذ بمن بايع الرسول على الموت ..

وسطر آل معاذ خلف سعد صفحات من الفخار في سجل الجهاد والاستشهاد .. فقتل عمر بن معاذ دون رسول الله ، فكبر لموته أخوه تكبيرة أذهلت المشركين عن الحرب ، وروعتهم عن مواصلة القتال !!

وعاد الرسول إلى عاصمته مرة أخرى ، ليرى عوض الله عن كسب المعركة .. ليراه في هذه النفوس المطمئنة بالرضى لما قسم الله .. وليراه في استبشار كل بيت شهيد باستشهاده .. بل وليراه ممثلا في آل بيت سعد بن معاذ ، حينما وافت أمه هند بنت سمالك أنباء مقتل ابنها عمر بن معاذ .. فما وهنت وما ضعفت وما حزننت .. بل قالت على الفور :
- ما عن عمر أسأل .. إنما أسأل عن رسول الله !!

(٣)

وجاء يوم الخندق ، إذ أقبلت قريش بأحاديثها وغررها ، في عشرة آلاف مقاتل ، تحاصر رسول الله والذين آمنوا معه في المدينة ، ولما يكتمل عدد المسلمين بعد ، ثلاثة آلاف !!

وكانت المحنة التي شمر لها الرسول عن ساعده ، واجتمع لها أنصار الله من حوله ، غير عابئين بالخطر ولا مبالين بالموت يحصرهم من كل جانب .. فبادروا بحفر الخندق حول عاصمة الإسلام ، ليكون معبر النجاة لهم .. ومعبر الموت لأعدائهم ..

وساور رسول الله الخوف من يهود بني قريظة أن ينتهزوا منه فرصة لينقضوا معه عهدهم بالألا يعينوا عليه أحدا من ناحية دورهم .. فتنادى **رسول الله ﷺ** سيد الأنصار سعد بن معاذ وكان سيد حلفائهم الأوس ، ونادى سيد الخزرج سعد بن عبادة وبعض الصحابة وقال :

— انطلقوا حتى تنظروا أحسن ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا .. فإن كانوا حقا ، فآلحنوا إلى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس .. وانطلق الرجال حيث أمرهم الرسول ، حتى أتوا القوم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم .. بل قابلوهم بالسخرية والتشفي ، وأعلنوا نقض العهد والميثاق ، ثم انطلق بعضهم يحملون السلاح في وجوههم ، استعدادا لضم صفوفهم إلى صفوف قريش ، فيكونون معها يدا واحدة لاستئصال شأفة المسلمين ..

وأخذت الخماسة بعض كبار اليهود ، فتهكموا على وفد الأنصار قائلين :

— من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد .. ولا عقد !! ولم يطق سعد بن معاذ صبرا ، وهو القوى الذي تغلب عليه

الحدة في مواطن الغضب لله ورسوله ، فشاتمهم ونال منهم ، وقد أخرج سلاحه ليكتب في سجل القداء صفحة بدمائهم . . ولكن أصحابه وقفوا دون اعتزاه ، تلبية لأمر رسول الله ، وقال له سعد ابن عباد :

— دع عنك مشاتمهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة . . .
وعاد وفد الأنصار ليخبر رسول الله بما كان . . .

ونظر الرسول الأعظم إلى آفاق المدينة ، فرأى جموع المشركين ، وقد انتظمت صفوفهم بحوافل القبائل من أقصى الجزيرة ومن أدناها ، ثم نظر إلى أصحابه في قلتهم ، فأخذ منه الإشفاق كل مأخذ . . . إنه يرى جنده متحفزين لتلبية إشارة منه ، ليرفعوا راية العزة وعلم الجهاد ، وليقذفوا بأنفسهم في نار الحرب دفاعاً عن كلمة التوحيد في الأرض . . . ورأى من خلال اللحظات الرهيبة نفراً من أصحابه يشاتمون أعداء الله من شاطئ الخندق ، ويلوحون لهم براحت التحدى ، ويقذفون جموعهم بالحجارة ، حتى أخذت بعض المشركين هزة العvisية ، فقفز بجواده من خلال الخندق ، فاجتمع عليه المسلمون فقتلوه ، ثم تناولوا سلاحه وهزوه في الهواء على مرأى من الأعداء ، وكانهم يتحدثون بلغة السيف عن مصائر الذين يبعثون في الأرض بغير الحق ١١

وكانت القارعة التي نبضت بها سواعد قريش وحافائها ، مدوية بصليل السيوف اللامعة ، ومنذرة بعاصفة الموت العاتية ، فأشفق الرسول مرة أخرى ، ورأى فيما رأى أن يكسر من شوكة

المشركين ، فيعرض على أصحابه كتاب غطفان إليه في ساعة العسرة ،
لينزل لها عن ثلث ثمار المدينة ، لقاء تركها الميدان . . إنه يرى في
غطفان جانبا عظيما من قوى الشرك ، فهي إن غادرت المعركة .. حل
الشقاق بقية الصفوف .. وإنه يرى من خلال ذلك أن يختبر رأى
المسلمين ، فأيا مارأوا كان الخير في جانبه .

وجمع رسول الله أصحابه ، وعرض عليهم الكتاب .. وبرر عرضه
عليهم بقوله :

- إنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من
كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . .
ووقف سعد بن معاذ أمام الرسول ، والناس ينظرون إلى
وجهه تتمثل فيه كل أمارات العزم والتصميم ، فقال :

- يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله
وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه .. وهم لا يطمعون أن يأكلوا
منا ثمرة إلا قرى أو يعبأ ، أخين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا
له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ،
والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . .

وعلا وجه رسول الله البشر والسرور ، وما ملك أن قال :
- فأنتم وذاك يا سعد ..

وتسلم ابن معاذ كتاب غطفان من رسول الله ، ثم هو ما فيه
وهو يقول :

- ليجهدوا علينا ، ليجهدوا علينا !!

ودقت ساعة الخطر .. ووقف الجانبان على هاوية الحرب، وبدأ
التناوش بين الفريقين المتباينين .. حيث بدأ المشركون يعملون لإجلاء
المسلمين عن حافة الخندق ، ليلجوا منه إلى المدينة ، ولكن المسلمين
صامدون ، يقابلون القوة بالقوة .. ونسأؤهم في الحصون
من ورائهم ..

وتقدم آل معاذ ، ليكتبوا في صحيفة الفداء صفحة جديدة ..
وبرزت أم سعد من فجوة حصن ابن حارثة ، تدفع سعدا إلى النضال،
وتدفع معه حفيدها الحارث بن أوس ، وتقول له :

— الحق يا بني ، فقد والله أخرت .. ١١ ..

ويرد عليها الحارث من أعماقه وقد حمل سلاحه ، فقال :

ليث قليلا يدرك الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

ونزل بنو قريظة من صياصيمهم ، ليضيفوا إلى سجل غدرهم صفحة
سوداء ، وقد جعلوا جل همهم أن يقتلوا سعدا بن معاذ ، وقد
رأوه يصول في ساحة الوغى صولة الأسد .. فتحين له جهان بن
قيس بن العرقة ، فرماه من خبائه بسهم قطع منه الأكل وهو يقول :

— خذها وأنا ابن العرقة .

وانزع سعد السهم من جسده فسال الدم مدرارا ، فجعل يسده
بيده فلا ينسد ، ثم نظر إلى العدو وهو يسرع في الاختفاء .. وقال :

— عرق الله وجهك من النار ..

ورفع سعد وجهه إلى السماء ، ودعا الله قائلا :

— اللهم لا تمنني حتى تشفيني من قريضة !!

وآذنت شمس النهار بالمغيب ، وأقبل الظلام ليلف الأفق
بجملته ، ونزل مدد الله من السماء ، وهبت الريح عاصفة قاصفة ،
لا تجعل خيمة لأعداء الله إلا اقتلعها ، ولا قدرا إلا كفأتها ، ولا
نارا إلا أطفأتها . . ولا عينا إلا أغمضتها ، ولا دابة إلا أهاجتها . .
حتى استعصى على المشركين أن يجمعوا ركانهم ، ففروا بليل هائمين
على وجه الصحراء ، وقد انشغل كل بنفسه يريد النجاة . ١١ اورجع
بنو قريظة إلى صياصيمهم فتحصنوا فيها . .

ونزل جبريل من السماء ليعلن أمر الله إلى رسوله باللاحاق
بقريظة ، لينزل بها قضاء الله فيها . .

وأحاط المسلمون بحصون أعدائهم ، يهتفون بأصوات العزة . .
واليهود من ورائها يسكون ويصرخون ، وقد ارتد كيدهم إلى
نحورهم . . وأخذ كبارهم يتوسلون إلى حلفائهم الأوس كيما يشفعوا
لهم عند رسول الله . ١١

وأخذت صرخات اليهود من الأوس بزمام العاطفة والرحمة . .
فأدوا إلى رسول الله ينظرون أمره ، فقال لهم :

— ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟؟

فأجابوه قائلين :

— بلى . .

فَقَالَ الرَّسُولُ :

— فَذَاكَ الْأَمْرُ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ . .

وَأَسْرَعَ بَنُو الْأَوْسِ إِلَى سَيْدِهِمْ بِالْمَسْجِدِ ، وَقَدْ اتَّخَذَهُ مَنْزِلًا لَهُ
وَهُوَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا كَانَ . . فَنَهَبَ مِنْ مَرْضَاهُ ،
فَأَرْكَبُوهُ عَلَى حِمَارِهِ ، وَأَسْتَدَوْهُ بِأَيْدِيهِمْ — حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ . .

وَاحْتَاطَ الْأَوْسُ بِسَيْدِهِمْ ، فَقَالُوا :

— يَا أَبَا عَمْرٍو ، أَحْسَنَ فِي مَوَالِيكَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا وَلَاكَ
ذَلِكَ لَتَحْسُنَ فِيهِمْ !!

فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ :

— لَقَدْ آتَى سَعْدٌ إِلَّا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا تُنَمُّ . .

وَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدٍ ، وَقَالُوا :

— يَا أَبَا عَمْرٍو إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ وَلَاكَ أَمْرَ مَوَالِيكَ
لَتَحْكُمَ فِيهِمْ . .

وَتَقَدَّمَ سَعْدٌ بِحِمَارِهِ ، حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ . . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى

جَانِبِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَالَ لَهُمْ :

— عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ ، أَنْ الْحُكْمَ فِيهَا لِمَا حَكَمْتُهُ ؟!

فَأَجَابُوهُ قَائِلِينَ :

— نَعَمْ . . إِنْ الْحُكْمَ فِيهَا لِمَا حَكَمْتَهُ .

ثُمَّ انْتَفَتَ سَعْدٌ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - وَقَدْ أَعْرَضَ

ﷺ عَنْهُ إِجْلَالًا لَهُ - فَقَالَ :

— وعلى من هاهنا ؟

فأجابه الرسول الأعظم :

— نعم . .

وانطلق لسان سعد كالزئير الرهيب ، فقال :

— إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتسبي

الذراري والنساء . .

وقام الرسول من قعدته ، ونظر إليه المهاجرون والأنصار ،

لينتظروا كلمته ، فقال ﷺ للناس . . وهو ينظر إلى سعد :

— لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات !

وتمت كلمة الله في الخائنين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا . .

ونظر سعد إلى السماء مرة أخرى وهو يمسك جرحه الذي

يتفجر بالدم ، ودعا ربه على ملا المسلمين قائلاً :

— اللهم إنك تعلم أنه ليس شيء أحب إلي من أن أجاهد فيك

من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه . . اللهم فإني أظن أنك قد

وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء ،

فابقني لهم حتى أجاهدكم فيك . .

ثم نظر إلى جراحته المتفجرة بالدماء ، واستأنف دعاءه ربه قائلاً :

— وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم ، فاجرهما

واجعل موتى فيها . . ١١

واشتد الألم بسعد ، واستبد به الإعياء ، فاحتمله المسلمون إلى

داره في بني عبد الأشهل . . ودخل عليه الرسول ليعوده فرأى جرحه قد انفجر ، فاقترب منه ﷺ ليعالج من أمره ، فاعتنقه سعد فنقع الدم في وجهه الشريف . .

وتطلع الرسول إلى السماء ليرثي سعداً عند ربه ، وليشهد له بالبر والوفاء ، فقال :

— اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك وصدق رسولك ، فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحاً . .

واستيقظ سعد من إغفائه الموت على دعاء رسول الله فقال :
— السلام عليك يا رسول الله . . أما أنا فأشهد أنك رسول الله . .
وغادر رسول الله دار سعد إلى داره بأكيا حزيناً . . ودخل الليل ، وهدأت الكائنات في أطرافه ، ونزل جبريل الأمين على رسول الله فأيقظه وقال :

— يا محمد ؛ من رجل من أمته مات الليلة ، استبشر بموته أهل السماء ؟ !

وطرق أذن الرسول صوت المنادى ، ليعلن في آفاق المدينة استشهاد سعد بن معاذ . .

وانطلق رسول الله إلى دار بني عبد الأشهل مسرعاً ، والمسلمون من ورائه لا يستطيعون اللحاق به . . فقالوا له :

— يا رسول الله قد أجهدت الناس . .

فأجابهم ﷺ قائلاً :

— إني أخشى أن تسببتنا إليه الملائكة ، كما سبقتنا إلى حنظلة . .

ودخل الرسول وحده إلى سعد ، وهو مسجى في سريره ..
واستمع إليه الناس وهو يقول :

— هنيئا لك أبا عمرو ، هنيئا لك أبا عمرو ، جزاك الله خيرا من
سيد قوم ، فقد أنجزت الله ما وعدته ، ولينجزك الله ما وعدك ..
وارتفع صوت أم سعد بالبكاء ، ترى شباب ولدها الذي لم يتعد
السابعة والثلاثين من عمره .. وهي تقول :

ويل أمك سعد صرامة وجد

فقال لها بعض المسلمين :

— أتقولين الشعر على سعد ؟ فقال النبي ﷺ :

— دعوها ، غيرها من الشعراء أكذب !!

واحتمل المسلمون جسد سعد وأنزلوه إلى قبره ، فتغير وجه
الرسول ، وسبح ثلاثا ، فسبح المسلمون من خلفه ، حتى ارتج البقيع ،
ثم كبر الرسول ثلاثا ، وكبر من خلفه المسلمون حتى ارتج البقيع
مرة أخرى !! فسأله بعض المسلمين عن ذلك ، فأجابهم النبي بقوله :
— تضايق على صاحبكم قبره ، وضم ضمة لو نجا منها أحد ، لنجا سعد ..
وسبح الرسول الأعظم لأم سعد أن تاتي على ابنها نظرة الوداع ،
وهي تقول :

— يا سعد ، لقد احتسبتك عند الله ..

وسوى رسول الله قبر سعد يديه ، وأهال عليه التراب ، ورش
الماء على مثواة .. ثم استقبل ربه ليدعو لسعد بعز الآخرة مع
الحالدين ، في منازل الشهداء والصالحين .